إيمان حمدي

السائق

رنين المنبه يتردد صداه في عقلها محاولا انتزاعها من أحلامها معيدًا إياها إلى واقع لا يسرها كثيرًا.. ما إن ألقت نظرة بعينيها النصف مغمضتين عليه حتى هبت منتفضة من سريرها وذاكرتها تستعيد شريط مسلسل من كم الخصومات التي وقعت عليها هذا الشهر جراء تأخرها عن العمل.. الأمر الذي دفع سؤالاً ليحتل الحيز الأكبر من تفكيرها عما سيتبقى لها من راتبها أم ستضطر لطلب سلفة كالعادة مع وعد - كاذب- بعدم تكرار التأخير، بالإضافة لإضطراراها تحمُل توبيخ مديرها ذهابا وإيابا.. ما يعكر صفو يومها فتلجأ لتصنع ابتسامة زائفة أمام عملائها..

ارتدت ما طالته يديها من خزانة الملابس أو بالأحرى ما يسهل ارتداؤه وهرولت إلى محطة الحافلات.. وما إن لمحت إحداهن حتى وثبت بداخلها مُحتلة المقعد خلف السائق..

لم يكن مقر عملها يبعد كثيرًا عن المنزل ولكن تأخرها يجعل مرور الوقت مختلفًا فيكاد قلبها يتعلق بعقارب الساعة لئلا تتحرك بسرعتها المعهودة.. ولكن هيهات.. فللقدر رأيٌ آخر ذلك اليوم.. فالحافلة تسير ببطء مُميت بالإضافة إلى ترنحها يمنةً ويسرةً كأنهم في لعُبة السيارات المتصادمة بملهى الألعاب.. ما جعل الركاب يهمهمون بعبارات ساخطة على السائق مُحملين إياه وِزر تأخرهم عن مشاغلهم، ويزداد السخط مع ضغطه على مكبح الفرامل حين تتوقف أمامه سيارة فجأة.. فيصطدم الواقفون بعضهم ببعض..

محاولة صرف نظرها عن الوقت ألقت نظرة على صورة السائق المنعكسة على المرأة الأمامية فرأت وجهًا عظام وجنتيه تكاد تبرُز من ثنايا جلده، وعينين غائرتين وسط جفون مترهلة تشك معهما أنه يرى الطريق جيدا.. شاربه ولحيته يبدوان غير متناسقين وكأن المقص الذي طالهما لا يملك أي خبرة تُذكر في هذا المضمار.. الغريب في الأمر ارتداؤه قميصًا صيفيًا يبدو مناقضًا لسنوات عمره التي تقترب من السبعين.. خاصة في مثل هذا الطقس البارد من شهر يناير.. ما جعل الفضول ينبت بأعماقها خاصة مع استمراره بالعمل لهذا العمر الذي تجاوز سن المعاش بكثير..

ازدحام الطريق جعله يتخذ طريقًا مختصرًا غير محدد لمسيرة الرحلة.. ما أغضب بعض الركاب فانهالوا عليه بالسباب وتوعدوه بقطع رزقه إن لم يعد إلى مساره الأصلي، ولكن سبق السيف العزل ولم يعد هناك مجال للعودة بعدما توغل في الطريق الجديد.. الأمر الذي دفع أحد الركاب إلى التقاط هاتفه وتقديم شكوى في السائق، ولم يمض على إنهاء مكالمته دقائق معدودة حتى انبثق من الأرض مفتش يتبع هيئة المواصلات ساحبًا رخصة السائق الذي سلمه إياها دون نقاش وعاد إلى مقعد القيادة مطأطئًا رأسه..

ويبدو أن موقفه هذا رقق قلوب أحد الركاب فحدثه ناصحًا: ما بالك ترهق نفسك بمثل هذا العمل.. لم لا تُنهي سنوات خدمتك وتُريحك من تلك المشقة؟!

بيد مرتجفة من البرد أوقف السائق الحافلة جانبًا ملتفتًا إلى محدثه بصوت يتداخل فيه الحزن بالانكسار، وبعيون يجاهد لمنع دموعها من مفارقة مقلتيه:.. "وما بالك بالمشقة حين ترى إحدى بناتك تؤخر زواجها السنة تلو الأخرى حتى يذوي شبابها لعدم قدرتك على شراء لوازم الزواج؟".

جوابه ألجم الألسنة وجعل تحمُلها لمديرها وتلميحاته واستدانتها للتسوق من كبرى الماركات وشكوتها المستمرة من عدم كفاية راتبها.. لا شيء يُذكر بجوار معاناة هذا السائق..

قال جملته وانطلق بالحافلة مكملاً طريقه مترنحًا كعادته.. ولكن هذه المرة لم ينبس أحد الركاب ببنت شفة.. جاءت محطتها فنزلت متمهلة إلى مقر الشركة وكلمات السائق تتردد بعقلها وسط تلاشي أي شيء آخر فيماعدا رغبة تنبت بداخلها بالتخلي عن السخط الدائم على حالها واستبدال منظارها للحياة بمنظار آخر يُريها الأشياء على حقيقتها وليس كما اعتادت رؤيتها.. ما إن دلفت إلى عملها حتى استقبلها مديرها بكلماته المعهودة، ولكنه فوجئ بابتسامة هادئة واعتذار بدا صادقا على غير العادة هذه المرة، وتوجهت إلى عملائها غير مبالية بالمرتب بأكمله.. وللمرة الأولى ترتسم على وجهها ابتسامة حقيقية.. ابتسامة رضا